المحاسبي وتأثيره في أقطاب التصوف الإسلامي

سميرة غموري – المغرب

باحثة في الفكر الإسلامي

ملخص:

شكل فكر الحارث بن أسد المحاسبي منظومة قوية متماسكة، تأثرت بعوامل خارجية تمثلت في تكوينه العلمي ومعطيات عصره، وعوامل داخلية تجلت في شخصيته النائية عن البهرجة والأضواء والواجهة. وطبيعي أن يكون لهذه الشخصية تأثير قوي على متصوفة عصره وتلامذته، وعلى المتصوفة بعده الذين قرؤوا له وعرفوا قدره.

لقد استطاع الحارث، رغم عدم شهرته أن يؤثر في العديد من الأعلام بعده، كأبي طالب المكي وأبي حامد الغزالي، بل إن تأثيره لم يقتصر على المتصوفة فحسب، بل تجاوزهم إلى غيرهم من العلماء، والأدباء. كما كانت أبرز تأثيراته الفكرية في الفكر الإسلامي عموما وفي المذهب الأشعري خاصة.

Abstract

The thought of El Harith Bnou Assad Al Mohassabi has formed a strong coherent system. It was enriched not only by external factors represented in his legitimal scientific formation and the data of hi sera, but also by internal ones manifested in his being a remote personality away from glamour, lights and façade.

It's evident for such a personality to have a strong influence on his contemporary suffists and his disciples.

In the present humble article I will reveal how al Harith managed to influence many erudite who came after him, such as Abi Tateb despiten a being so famous.

The influence was not limited to suffists alone but it reacjed both erudites and literary people.

Al Harith's great impact was generally on the Islamic thought ans basically on the Ash'ari doctrine.

مقدمة:

يعتبر موقع الحارث بن أسد المحاسبي تاريخيا، حدا فاصلا بين مرحلتين: مرحلة الزهد منهجا في الحياة، ومرحلة التصوف علما وحركة لها أصولها ومناهجها. ومن هنا تبرز أهمية فكر الرجل وتأثيره.

وإذا كان الرجل مؤثرا، فلابد أنه جمع إلى قوة الفكرة، قوة الخطاب وقوة الشخصية. وكل هذه الأركان الثوابت عند أبي عبد الله، تبرز في كل صفحة من صفحات كتبه ورسائله.

يقول عنه الدكتور عبد الحليم محمود: " لقد كان مثال الثوري، والقائد المطاع، كان رجل الانفعال المفاجئ، والقرار الحاسم والروح المسيطرة القوية المراسي، فلما حملته المقادير إلى التصوف، لم يلبث أن نفذ إلى مصاف الزعامة الأولى، ومع كل ذلك لا يمكن إنكار آثار المحاسبي في الغزالي، والغزالي نفسه يعترف بذلك ولا ينكره" [(1)].

إن تطور فكرة الزهد واعتزال الدنيا، إلى علم قائم، تداوله رجاله على مر العصور، ليس بالأمر الهين. لقد اختارت الأقدار أبا عبد الله ليحمل على عاتقه مشعل الانطلاق، واصطفته ليكون المنظر الأول لمبادئ التصوف السني. بيد أن هذه الأصول ترعرعت وبرزت بجلاء عند تلميذه أبي القاسم الجنيد، وعند أقطاب الصوفية فيما بعد، كأبي طالب المكي وشيخ الإسلام الإمام الغزالي.

ويمكن أن نقيد نقاط التأثير في ثلاثة مجالات:

- على مستوى المنهج.
- على مستوى المصطلح.
- على مستوى الموضوع.

وفي تقديري أن هذه الدراسة- دراسة مجالات تأثير المحاسبي- لا تخلو من مجازفات ومحاذر، ولا يمكنني- والحالة هذه- أن أجزم بشيء، حتى أستند إلى دليل قوي وشاهد متين، يدعم نتائجي. وهذا السند لا يخلو أن يكون أحد اثنين:

- مقارنة أقوال المحاسبي بأقوال هؤلاء، ومادة هذه المقارنة مؤلفات كل منهم.
- الاعتماد على بعض الدراسات، من قبل من كتبوا عن المحاسبي، وهم قليل كما سبق الذكر، بل هي مجرد التفاتات لا تصل إلى مستوى الدراسة الموثقة والمفصلة.

إن موضوع المقارنة ودراسة التأثير بشكل عام، موضوع دقيق وحافل بالمتاعب، وبقدر ما يحمل من التبعات التاريخية، والمسؤولية الفكرية، فإن إنجازه يعد بصمة قوية في مسيرة الفكر الإسلامي.

كما أن قوة الفكر واستقامته، تقاس بحدة تأثيره وبقائه واستمراره، **(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)**[2]، ولا شك أن رسالة الحارث المحاسبي لم تنته بعد، "بل إن العصر الحديث بما اتصف به من اتجاهات ومعاكسات، وما انطلق عنه من أهواء وحروب، لمما يكسب تآليف المحاسبي جدة لا تبلى، ويلقي عليها أنوارا لا تنطفئ"[3].

ولم يكن تأثير المحاسبي الكلامي أقل شأنا من تأثيره الصوفي، وما يزال المسلمون إلى يومنا مدينون له، يقيمون شعائرهم على مذهب أهل السنة الذي يستمد رؤيته من المذهب الأشعري، هذا المذهب لولا المدرسة الكُلاَّبية (أسلاف الأشعرية) التي أرست دعائمه لما راح ولا جاء.

لقد تحمل المحاسبي كل الأذى والاتهام، عندما أسس لهذه المدرسة، بيد أن الزمن كفيل بمكافأة الشيخ بما هو به جدير.

الحارث المحاسبي

ولد أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي [4]، بالبصرة حوالي (165هـ) [5]، ورغم أن الأخبار والروايات عن صغره وشبابه المبكر لم يصلنا منها شيء، إلا أننا تستطيع أن نخمن من رواياته الكثيرة عن المحدثين والفقهاء، "أنه قضى شبابه في حلقاتهم، ومن ثم، كان من الطبيعي أن يبتعد عن حلقات المعتزلة وأهل الكلام".[6]

روى السبكي عن بعضهم قال: " رأيت الحارث "بباق الطاق" في وسط الطريق متعلقا بأبيه والناس قد اجتمعوا عليه يقول: أمي طلقها فإنك على دين وهي على دين غيره."[7]

ويمكن أن نستخلص من هذه الحادثة أمورا منها:

1- انتقال الحارث المحاسبي مع عائلته من البصرة إلى بغداد، والدليل على ذلك مكان الحادثة "باب الطاق" وهي محلة ببغداد.

2- نشأته المبكرة على الورع، فقد أدرك أن أباه كان قدريا[8] –معتزليا– ومن ثم طالبه بإلحاح شديد بتطليق أمه.

3- نشأته في أسرة مثقفة، إذ كانت المعتزلة في مجموعهم من مثقفي المجتمع وأدبائه.

ومما يؤيد ما ذكر من ميل أبيه للاعتزال، – وورعه الشديد أيضا– "أنه ورث عن أبيه سبعين ألف درهم، فلم يأخذ منه شيئا[9]، لأن أباه كان يقول بالقدر، وقال: لقد صحت الرواية عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا يتوارث أهل ملتين"، ومات وهو محتاج إلى درهم، وخلف أبوه ضياعا وعقارا فلم يأخذ منه شيئا."[10]

تأثير المحاسبي في أقطاب الصوفية

تتضح أهمية المحاسبي و قيمته في مدى تأثيره في كبار أقطاب الصوفية. نكتفي بدراسة لتأثيره في أبي القاسم الجنيد و أبي طالب المكي ثم في أبي حامد الغزالي

تأثيره في أبي القاسم الجنيد

يعتبر أبو القاسم الجنيد (ت297هـ)[11] أكثر أقطاب الصوفية حظوة لدى المؤرخين. وقد استأثر بالنصيب الوافر من الاهتمام والدراسة، ونعت بأنه الصوفي الجامع بين الحقيقة والشريعة، واشتهر بقطب العارفين، وعدت مدرسته كنه التصوف منهجا وأصولا وسلوكا، لذلك ذاعت شهرته في الآفاق، حتى جعله ابن عاشر ثالث اثنين يرتكز عليهما إسلام المرء فقال:

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك

ولعل من بدهيات القول، أن قدر التلميذ من قدر أستاذه، وقد عب أبو القاسم من معين صاف، لذلك عرف مذهبه بالمذهب الصوفي السني، فكتبت له الشهرة وجعل على رأس الصوفية لقوة فكره ومتانة منهجه.

وإلى جانب المحاسبي، تتلمذ الجنيد على جهابذة من شيوخ التصوف والعلم، كسري السقطي[12] (ت257هـ)، وأبي جعفر القصاب[13] (ت257هـ)، وأبي جعفر الكرنبي[14]، وأبي علي المسوحي[15] (ت260هـ). وصحب مشايخ لا يقلون علما وفهما. منهم أبو جعفر الحداد[16]، وأبو سعيد الخراز[17] (ت286هـ)، ورويم البغدادي[18] (ت303هـ) وسهل التستري[19] (ت283هـ).

وحسبنا في هذا المبحث أن نذكر بعض أقوال الجنيد المتضمنة لمنهجه السني:

– قال أبو القاسم الجنيد لرجل ذكر المعرفة عنده فقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر و التقرب إلى الله تعالى، فقال الإمام الجنيد: "إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالا من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم انقص من أعمال البر ذرة، إلا أن يحال بي دونها، وإنه لأَوْكد في معرفتي وأقوى في حالي"[20]

واشتهر عنه قوله: "الطريق إلى الله مسدود على خلق الله عز وجل إلا على المقتفين آثار رسول الله والتابعين لسنته"[21].

وهو القائل: "ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات" [22].

وقال:"إن من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد

بالقرآن والسنة، فمن ادعى الوصول بغير هذا، فهو مبتدع لا يرجع إليه، ولا يعول عليه في شيء" [23].

وقال: "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام"[24].

وموقفه من الصحابة لا يختلف عن موقف المحاسبي، إذ نراه يثني على علي ﷺ حين يقول: "رضوان الله على أمير المؤمنين علي ﷺ، لولا أنه اشتغل بالحروب لأفادنا من علمنا هذا معاني كثيرة، ذاك أمرؤ أعطي علما لدنيا" [25]

وقد سئل عن الزهد فقال: "خلو القلب عما خلت منه الأيدي، واستصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب" [26].

وقال: "احفظوا ساعاتكم، فإنها زائلة غير راجعة، والحسرة على الغفلة من قوتها واقعة، وصلوا أورادكم تجدوا نفعها في دار الإقامة، ولا يشغلكم عن الله قليل الدنيا فإن قليلها يشغل عن كثير" [27].

وقد بلغ تأثر الجنيد ناحية الأسلوب والتعبير، حيث نراه في هذا النص يكتب بطريقة المحاسبي في التوليد، وهو يشبه إلى حد كبير نصوصا سبق ذكرها، ملئت بها كتب المحاسبي، وهذا النص لو ذكرناه من دون الإشارة إلى صاحبه، لتبادرت إلى الأذهان نسبته إلى المحاسبي.

لنتأمل هذا النص: "اعلم أن أول عبادة الله معرفته، وأصل معرفة الله توحيده، ونظام توحيده نفي الصفات عنه بالكيف والحيث والأين، فيه استدل عليه، وكان سبب استدلاله عليه توفيقه، وبتوفيقه وقع التوحيد له، ومن توحيده وقع التصديق به، ومن التصديق به وقع التحقيق عليه، ومن التحقيق جرت المعرفة به، ومن المعرفة به وقعت الاستجابة له فيما دعا إليه..." [28].

وفيه يبدو كذلك تأثره، بموقف الحارث من الصفات، وهو يبرز إلى حد كبير عقيدة الجنيد المستمدة من مذهب أهل السنة.

تأثيره في أبي طالب المكي

أبو طالب المكي(ت386هـ)[29]، من أئمة الصوفية المرموقين، ولا ينسب إليه العديد من المصنفات، بيد أن كتابه "قوت القلوب في معاملة المحبوب، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد "يغني عنها، ويسد الحاجة إليها، وقد عرف عنه هذا المؤلف، حتى إذا ذكر "أبو طالب المكي"، تبادر إلى الأذهان كتاب القوت، وهو موسوعة فريدة في علم التصوف، قال عنه ابن عباد النفري (ت792هـ): "أما كتاب أبي طالب، فعليه وقع الاختيار، إذ لم يقع بين أيدينا مثل منزعه، فإنه فيه فتح مغاليق علم التصوف، وجمع فيه بين المعاني الصحيحة، والألفاظ الحسنة، وذكر فروع علومها وأصولها، ورسم مسائلها وفصولها، فكان لذلك المدونة في علم الفقه، يقوم مقام غيره، ولا يقوم غيره مقامه" [30].

وعنه قال ابن تيمية: " أبو طالب أعلم بالحديث والأثر، وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبي حامد الغزالي، وكلامه أسد وأجود تحقيقا وأبعد عن البدعة"[31].

ويقرر العديد من الدارسين تأثر الغزالي بكتاب القوت، وينسبون مضمون الإحياء إلى كتاب أبي طالب. لكن الحقيقة التي أغفلت، أن الغزالي اخذ بشكل مباشر عن المحاسبي، وقد يكون لكتاب القوت كذلك أثر في الإحياء، إلا أن هذه النتيجة تزداد دعما وتأكيدا عند اطلاعنا على كتاب أبي طالب، حيث تظهر معالم أبي عبد الله بارزة دون أدنى معاناة، و"قد ثبت بالدليل القاطع، من أبواب ونصوص "قوت القلوب"، تأثره الشديد الذي يكاد يكون نصيا لآراء واصطلاحات المحاسبي، ليس فقط في "الرعاية" بل في كتابه "المسائل في أعمال القلوب"[32].

ومن الموضوعات التي اقتبسها أبو طالب نجد موضوع: عمل المريد في اليوم والليلة، وموضوع: العلم وتفضيله، وأوصاف العلماء، والفرق بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة، وتفضيل علم الإيمان واليقين على سائر العلوم، والمراقبة والمحاسبة، والإخلاص، والكبائر، والفقر وفضائله، والكسب، والحلال والحرام، والخواطر، وتفاوت الزهاد في مقاماتهم... وغيرها.

وحسبنا أن نذكر مثالا حتى ندرك التشابه الكبير بينهما.

يقول المحاسبي عن الكسب: "والذي يفعل ذلك يقتدي بالرسول، وينال الثواب في نفسه وعياله"[33]، ويقول أبو طالب "فالتكسب أفضل إلى الخلق واعتماد المسألة، ويكون أيضا متبعا للسنة والأثر"[34].

تأثيره في أبي حامد الغزالي

اتفق معظم الدارسين – بل جلهم – على تقدير فكر أبي حامد الغزالي[35] (505هـ)، وقد تبوأت إنتاجاته الغزيرة مبوأ القمة في ميادين مختلفة، شملت الفقه والفلسفة والتصوف والأصول والتوحيد، ودوى صيته عاليا قويا، وكان له الأثر العميق على مختلف المذاهب والطوائف قديما وحديثا.

ونموذج الغزالي مثال على الموازنة والاعتدال، حيث كانت مدرسته وما تزال، المثال الرائد في التصوف السني الذي يركز على معادلة العقل والحقيقة، سلاحه في ذلك "عمق فكري، ودراسة بصيرة في كل النظريات والثقافات التي كانت تعاصره، والموهبة الخارقة، والروح الناقدة، والحرص الشديد على التجديد وحرية الاختيار، والرغبة العارمة في المحافظة على بقاء النقاء الإسلامي"[36].

وقد لخص الغزالي هذه الكلمات، حين قال عن نفسه":

لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته.

ولا ظاهريا إلا وأحب أن أطلع على ظاهريته.

ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته.

ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته.

ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته.

ولا زنديقا معطلا إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته [37]".

ولا غرابة أن يكون التشابه والقرب الفكري بينه وبين الحارث المحاسبي، فكلاهما يرفع شعار "العلم قائدك"، وكلاهما بحث في النفس، وقلب آفاتها، وأرسى دعائم العلاج بحكمة وتثبت.

لكن أبا حامد اغترف من كتب المحاسبي وتأثر به أشد ما يكون التأثر، حتى قال الشيخ زاهد كوثري: " لقد تبطن كتاب الإحياء، كتاب الرعاية للمحاسبي" [38].

وتوجد شواهد عديدة على هذا التأثر، خصوصا في كتابيه "المنقذ من الضلال" و"إحياء علوم الدين".

وقد اشتهر عن الغزالي أنه "راجع العلوم، وخاض في الفنون، وعاود الجد والاجتهاد، وكتب العلوم الدقيقة، واقتفى تأويلها حتى انفتح له أبوابها"[39].

وهذا المعطى يحذو بنا إلى القول بأنه اطلع على مؤلفات الحارث، بل إنه اعترف بذلك اعترافا حين ذكر أنه ابتدأ "بتحصيل علم الصوفية من مطالعة كتبهم، "كقوت القلوب" لمكي أبو طالب، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد" [40].

وكتاب الإحياء الذي ذاع صيته في الآفاق، وعد من أهم تصانيف أبي حامد، حتى قال فيه النووي: "كاد الإحياء أن يكون قرآنا"، ما يزال أثره وسيبقى في العالم الإسلامي راسخا لما لقي من القبول لدى المسلمين وغيرهم، وقد شرح واختصر وترجم وانتقد وأعيد طبعه مرات عديدة، وفي كل الأوقات تطالعنا دراسات وبحوث مختلفة تستخرج درره وتجلي حكمه.

وحق لنا أن نتساءل: إلى أي حد تأثر أبو حامد بالإمام المحاسبي في هذا المؤلف المهم، وكيف وماذا استقى من "الرعاية"؟

وبالرجوع إلى كتابه "المنقذ من الضلال" كذلك، يظهر التأثير إلى حد النقل الحرفي دون الإشارة إلى مصدره.

وجملة القول، إن الغزالي أخذ عن المحاسبي كثيرا من الموضوعات، واستعمل العديد من مصطلحاته، كما استقى منه أساسيات منهجه التصوفي، وسأحاول إبراز جوانب التأثير ومواضعه، وتقديم الشواهد على جدة أفكار أبي عبد الله، وحضوره في فكر الغزالي.

التأثير من حيث الموضوع والمصطلحات.

حاز أبو عبد الله المحاسبي قصب السبق، حين ألف في موضوعات بعينها، كموضوع الحديث عن نفسه، ووصف حالته النفسية وأزمته الروحية التي انتهت بقراره الانضمام إلى صفوف الصوفية، حيث اطمأنت نفسه، وهدأ روعه. وهذا الموضوع نفسه يقابلنا في أوائل صفحات كتاب الغزالي" المنقذ من الضلال"، ولنتأمل هذه النصوص من كلا المؤلفين.

يقول شيخ الإسلام الغزالي: "إن اختلاف الخلق في الأديان والملل، ثم اختلاف الأمة في المذاهب مع كثرة الفرق، وتباين الطرق، بحر عميق غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجي...وهو الذي وعد به سيد المرسلين، وهو الصادق المصدوق حيث قال: "ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة. الناجية منها واحدة".. ولم أزل في عنفوان شبابي — منذ راهقت البلوغ- قبل العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين، اقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الجذور، أتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتفحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل ومسنن ومبتدع" (41).

ويقول عن الصوفية أنهم "أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بالعلم، فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك" (42).

ويقول: "إن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وإن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، فإن جميع حركاتهم في باطنهم وظاهرهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة" (43).

ويقول أبو عبد الله المحاسبي: "انتهى البيان إلى أن هذه الأمة تفترق بضعا وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية والله أعلم بسائرها... وتدبرت أحوال الأمة ونظرت في مذاهبها وأقاويلها، فعلمت من ذلك ما قدر لي، ورأيت اختلافهم بحرا عميقا غرق فيه ناس كثير، وسلم منه عصابة قليلة" (44).

ويقول: "فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار، فرأيت اجتماعا واختلافا، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن عند العلماء بالله وأمره، الفقهاء عن الله العاملين برضوانه، الورعين عن محارمه، المتأسين برسوله، المؤثرين الآخرة عن الدنيا، أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين... فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليه، الموصوفين بآثارهم، واقتبست من علمهم... ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى"... (45)

ونراه في كتابه الإحياء يعرض لجملة من الموضوعات المستوحاة من بعض ما كتب المحاسبي، كالفصل الذي بين فيه "حقيقة الزهد" فإنه مأخوذ عن "المسائل في الزهد"، وكتاب الإخلاص الذي أخذه عن "باب معرفة قوة

الإخلاص" في "الرعاية"، وفصوله عن المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة والحسد والوسوسة والرياء والكبر، والعجب...كلها مستوحاة من كتاب "الرعاية".

يقول الغزالي عن المحاسبة: "إنه لولا لزومها – أي النفس- للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة. والعقل هو التاجر في طريق الآخرة، وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس، فيستعين بالنفس في هذه التجارة، إذ يستعملها، ويستسخرها فيما يزكيها"[46].

وهي عند المحاسبي كما سبق الذكر:"تكون بقيام العقل على حراسة جناية النفس، فتتفقد زيادتها من نقصانها"[47]. و"إنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا"[48].

كما يعقد الغزالي فصلا بعنوان "التفكر"، وغير مستبعد أن يكون أصلا لكتاب المحاسبي المفقود "التفكر والاعتبار"، وتبدو آثار كتاب "التوهم" كذلك واضحة على "كتاب ذكر الموت" من "الإحياء"، حيث يظهر التصوير لمشاهد القيامة متشابها إلى حد كبير، وهكذا في كل فصل وكل كتاب تطالعنا موضوعات الحارث بمصطلحاتها وتحليلها، وقد أضفى عليها الغزالي لمساته المتجلية في دقة التبويب والتحليل، واستيفاء الشرح والتذييل.

ويذهب الأستاذ مُحَمَّد العابد المزالي، إلى بيان تأثير المحاسبي في الغزالي من خلال كتابه "العلم"، وقد وضع مقارنة بينه وبين كتاب العلم في الإحياء ليخلص إلى النتيجة السالفة الذكر.

يقول في مقدمة كتاب العلم: "لقد كادت العبارة تكون واحدة، مما يذهب بالقارئ إلى الجزم أن الغزالي، عندما كتب ما كتب، لم يكتف في هذا الباب بالاستيحاء بل كان ينقل عن المحاسبي نقلا دون ذكر لمرجع" [49].

التأثير من حيث المنهج

كتب الغزالي عن "العقل وشرفه" وهو فصل يتطابق تمام التطابق مع فصل للمحاسبي في كتابه "الوصايا"، وكتاب "ماهية العقل"، وقد بلغت درجة التأثير إلى الحد الذي جعله يستدل بالشواهد نفسها عند المحاسبي، منها حديث: "أول ما خلق الله العقل قال له: أقبل، فأقبل... الحديث.

وقد عرف العقل بقوله: "هو الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم، وهو الذي استعد لقبول العلوم النظرية، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية" [50].

وهو ما أورده المحاسبي حين عرف العقل قائلا: " إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء" [51].

ونلاحظ اقتباس الغزالي لهذه الجملة "نور يقذف في القلب"، واشتهارها عنه في تعريف علم التصوف.

وبالجملة تبدو نظريته العقلية مطابقة لنظرية المحاسبي، وهي أن العقل لا قيمة له دون حضور الشرع.

يقول الغزالي: "اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لن يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس والشرع كالبناء، ولن يثبت بناء دون أس، وأيضا فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن الشعاع، ولن يغني الشعاع ما لم يكن البصر... " [52]

وهذا التشبيه قريب من تشبيه المحاسبي حين يقول: "العلم للعقل كالسراج للعين أو النور للشمس" [53]، ويقصد بالعلم الكتاب والسنة لأنهما الأساس في العلم.

وقد هاجم المعتزلة والفلاسفة وباقي الفرق، راميا إياهم بالتفريط في تمجيد العقل حتى استبعدوا نصوص الشرع، وكلاهما "بعيد عن الحزم والاحتياط، بل الواجب المحتوم في الاعتقاد ملازمة الاقتصاد، والاعتماد على الصراط المستقيم"[54] وهو نفسه منهج الحارث في "فهم القرآن"...

وها هو الغزالي في كتاب ذم البخل وذم المال، يذهب إلى رأي المحاسبي في "الوصايا" وينقل عنه أقواله مثنيا عليه.

يقول في ذم الغنى ومدح الفقر: "ونقتصر فيه على فصل ذكره الحارث المحاسبي ﷺ، في بعض كتبه في الرد على بعض العلماء الأغنياء، حيث احتج بأغنياء الصحابة، وبكثرة مال عبد الرحمن بن عوف وشبه نفسه بهم، والمحاسبي رحمه الله حبر الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال وأغوار العبادات، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه" [55].

وفي مايلي، جدول للمقارنة بين ما جاء في كتاب العلم للمحاسبي، وكتاب العلم (من الإ حياء) للغزالي في الصفات المذمومة.

المحاسبي	الغزالي
خوف الفقر	خوف الفقر
سخط المقدور	سخط المقدور
الغل	الغل
الحقد	الحقد
الحسد	الحسد
الغش	الغش
طلب العلو	طلب العلو

المحاسبي	الغزالي
حب الثناء	حب الثناء
حب الحياة	حب طول البقاء في الدنيا
الانتصار للنفس إذا نالها بذل	شدة الانتصار للنفس إذا نالها بذل
ضعف الانتصار للحق	ضعف الانتصار للحق
اتخاذ أعوان العلانية على عداوة في السر	اتخاذ أعوان العلانية على عداوة السر
الأمن بأن يسلب شيئا أعطي	الأمن من مكر الله سبحانه في سلب ما أعطى
الاتكال على الطاعة	الاتكال على الطاعة
طول الأمل	طول الأم
القسوة	القسوة
الفظاظة	الفظاظة
الفرح بالدنيا	الفرح بالدنيا
الحزن على فوتها	الأسف على فوتها
الأنس بالمخلوقين	الأنس بالمخلوقين
الوحشة لفراقهم	الوحشة لفراقهم
الجفاء	الجفاء
الطيش	الطيش
العجلة	العجلة
قلة الحياء	قلة الحياء
قلة الرحمة	قلة الرحمة
الكبر	الكبر
الغضب	الغضب

المحاسبي	الغزالي
الأنفة	الأنفة
العداوة	العداوة
الاستهانة بالفقراء	الاستهانة بالفقراء
الفخر	الفخر
الخيلاء	الخيلاء
التنافس في الدنيا	التنافس
المباهاة	المباهاة
الإعراض عن الحق استكبارا	الإعراض عن الحق
الخوض في ما لا يعني	الخوض في ما لا يعني
كثرة الكلام	حب كثرة الكلام
الصلف	الصلف
التزين للمخلوقين	التزين للخلق
المداهنة	المداهنة
العجب	العجب
الاشتغال بعيوب الخلق عن عيوبه	الاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس
افتقار القلب من الحزن	زوال الحزن من القلب
خروج الخشية منه	خروج الخشية منه

تأثيره من حيث خصائص تصوفه

ارتكزت خصائص تصوف المحاسبي على أربع دعائم:

1- **المحاسبة والمراقبة**: وهي الدعامة التي لقب الحارث بها، وطغت على فكره، وهي – حسب المحاسبي- نظر وتثبت بالتمييز بما كره الله عز وجل مما أحب، وهي على ضربين: إحدهما في مستقبل الأعمال والأخر في مستند برها. وأصلها الخوف والرجاء، وتكون بقيام العقل على حراستها. وفائدتها: الزيادة في البصيرة، والكيس في

الفطنة، والسرعة في إثبات الحجة واتساع المعرفة. وكل ذلك على قدر لزوم القلب للتفتيش، وهي كما يبدو من سيرة المحاسبي مبدأ عملي عنده، بدأت تجلياته في ورع المحاسبي وبعده عن الشبهة.

2- **الزهد**: وهو مستمد من آيات القرآن والسنة، وسلوك السلف من الصحابة والتابعين. وبواعثه: خفة المؤونة والراحة من عظيم الكلفة.

3- **العقل**: وقد سبق تسمية تصوف المحاسبي بالتصوف العقلي. وغاية حضور العقل في تصوف الحارث هي حمايته من الوقوع في شطحات الصوفية الذين يغيب عندهم العقل، كما أن العقل في منظومة المحاسبي عملي. وهذه ميزته، إذ لا قيمة للأخلاق عنده إذا لم تظهر ثمرتها عمليا، وهو مع النص متلازمين ولاغنا لأحدهما عن الآخر.

4- العلم: وقد أفرد له المحاسبي مؤلفا خاصا، ويعني به: الكتاب والسنة، وقد قسمه إلى ثلاثة أنواع.

- علم أحكام الدنيا وهو العلم الظاهر.
- علم أحكام الآخرة وهو العلم الباطن.
- علم أحكام الله في خلقه.

وهو أداة لتزكية العقل، وهو أفضل العبادة، وهو دون عقل كالسراج بدون العين، وقد دعا إلى الجمع بين علم المعاملات وعلم الفقه، وانتقد من يحتقرون علوم المعاملات أشد الانتقاد.

- أما منهجه في التصوف، فقوامه أربعة مبادئ:

- الاعتماد على الكتاب والسنة: وقد ثبت من خلال مؤلفاته اعتماده العديد من الآيات والأحاديث، لتدعيم رأيه.

- البحث في آفات النفس: وهي ميزة تحسب للحارث، وقد فصل بحثه فيها رغم أن الكثيرين أنكروا عليه ذلك، وركز على الآفات المحبطة للأعمال كالكبر والرياء والحسد والغرة والعجب، وكان له سبق إثارة بعض المواضيع "كموضوع الغرة".

- التفاعل مع المجتمع: وهو مبدأ طبيعي لخاصية التوازن عند الحارث، وقد كان له موقف معتدل من المعتزلة، كما مكنه اعتداله من اتخاذ مواقف ناضجة تجاه مواضيع عديدة، ناقشها المتصوفة، وذهبوا فيها مذهب الإفراط.

- الجرأة على الحق: وقد وظف هذه الجرأة في انتقاداته للفقهاء والمتصوفة والمحدثين والمعتزلة. وكل من هذه الفرق –حسب المحاسبي- أخطأ في جانب أو جوانب من رؤيته، وهو في نقده يبدو موجها.

خاتمة

لقد استطاع الحارث، رغم عدم شهرته أن يؤثر في العديد من الأعلام بعده، كأبي طالب المكي وأبي حامد الغزالي، بل إن تأثيره لم يقتصر على المتصوفة فحسب، بل تجاوزهم إلى غيرهم من العلماء، والأدباء. كما كانت أبرز تأثيراته الفكرية في الفكر الإسلامي عموما وفي المذهب الأشعري خاصة.

بل إنه قدم للتاريخ معروفا كبيرا حين أصل لعلم التصوف ووضع منهاجه ومصطلحاته، واستطاع بفضل ما أوتي من المكانة العلمية أن يحمل هذا المشعل ليبرز عند تلميذه الجنيد فيما بعد. وهذه المسألة في حاجة إلى دراسة معمقة، وهي موضوع بحث مستقبلي بإذن الله.

وفي اعتقادي أن فكر المحاسبي سينشر في الآفاق، حينما يعثر على مؤلفاته المفقودة، وتحقق رسائله المخطوطة. وهو مجهود لا شك مضن، لكنه سيفسح المجال واسعا، للبحث في دقائق أخرى متعلقة بالتصوف عموما، وبتصوف الحارث على الخصوص. وهذا يدعو إلى تظافر الجهود من قبل الباحثين والمفكرين والمسؤولين وأولي العزم والغيرة على التراث الإسلامي.

هوامش:

(1) – أستاذ السائرين، ص67.

(2) – سورة الرعد، الآية 17.

(3) – مقدمة كتاب العلم، ص78. مُحَمَّد العابد المزالي.

(4) – يمكن الرجوع في ترجمته إلى المصادر التالية: طبقات الأولياء لابن الملقن ، ص 175، طبقات الصوفية للسلمي، ص 58، طبقات الشافعية للسبكي، ج2 ص 37، حلية الأولياء ج10 ص 79، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج 8، ص 211، شذرات الذهب ج2، ص 103، وفيات الأعيان لابن خلكان ج2 ص 57، الفهرست ص 230، الرسالة القشيرية ص 429، مرآة الجنان، ج2، ص 106، مختصر طبقات الفقهاء للنووي، ص 390، سير أعلام النبلاء، ج 12، ص 150. تذكرة الأولياء: ص225 و229.

(5) – لا تذكر المصادر تاريخ ميلاده، إنما ذهب إلى هذا التأريخ، الدكتور محمود عبد الحليم والدكتور حسين قوتلي، كما أننا لا نعلم شيئا عن أولاده، وعن سبب كنيته بأبي عبد الله.

(6) – فهم القرآن، ص 18.

(7) – طبقات الشافعية ج2، ص 37.

(8) – وهم الذين قالوا بقدرة الإنسان على الاختيار، وقد أطلق هذا اللقب على المعتزلة.

(9) – مرآة الجنان، ج2، ص106.

(10) – المصدر نفسه، ج2، ص 106.

(11) – هو أبو القاسم الجنيد بن مُحَمَّد بن الجنيد الخراز القواريري كان أبوه يبيع الزجاج، لذلك كان يقال له القواريري، لقبه أبو القاسم القشيري بسيد الطائفة وإمامهم، وأصله من نهاوند، أفتى في حلقته وهو ابن عشرين على مذهب أبي ثور. كان إذا تكلم في الأصول والفروع بكلام أعجب الحاضرين، قال فيه ابن عجيبة: كان شيخ العارفين وقدوة السالكين، وعلم الاولياء في زمانه. وقد سئل يوما عمن أخذ علمه فقال:

"أما في أول أمري فعن خالي سري السقط، ثم عن أدبي مع الله سبحانه وتعالى ثلاثين عاما تحت هذه الدرجة". توفي سنة (297هـ) ودفن ببغداد، انظر الرسالة القشيرية الصفحة 24 وصفة الصفوة ج 1 ص 479 ،و طبقات الصوفية ص159، وحلية الأولياء ج 10 ص225، و اللمع في التصوف ص 128.

(12) – انظر الصفحة 82 .

(13) – أبو جعفر القصاب (275هـ): مُحَمَّد بن علي القصاب، البغدادي الصوفي، قال فيه تلميذه الجنيد: الناس ينسبونني إلى سري، وكان أستاذي مُحَمَّد القصاب. وقد تتلمذ على يديه: الشيخ النوري والشيخ سمنون بن حمزة. أثر عنه قوله: التصوف هو أخلاق كريمة، ظهرت في زمان كريم، من رجل كريم، مع قوم كرام، توفي سنة (257هـ)، انظر طبقات الصوفية، ص: 155 و164 و198 وتاريخ بغداد: ج 3، ص 62.

(14) – أبو جعفر الكرنبي: صوفي من صوفية بغداد، نال عنه أبو نعيم: فاق أقرانه في الاجتهاد وكثرة الأوراد، وتأدب أكثر نساك بغداد بأدبه، وتوارثوا منه شريف الآداب، وحميد الاخلاق، انظر تاريخ بغداد ج 14، ص 213.

(15) – أبو علي المسوحي (260هـ): هو شيخ الزهاد، أبو الحسن بن علي البغدادي الصوفي المسوحي، حكى عن بشر بن الحارث وسري السقطي وكان أول من عقدت له حلقة ببغداد للكلام في الحقائق، حكى عنه الجنيد وابن مسروق وأبو محمود الجريري والقاضي أبو عبد الله المحاملي. انظر تاريخ بغداد ج 7 ص 366، وحلية الأولياء ج 10 ص 322. وسير أعلام النبلاء ج 12 ص 580.

(16) – أبو جعفر الحداد: من مشايخ الصوفية الكبار، انظر تاريخ بغداد ج 14 ص 210. وحلية الأولياء، ج 10، ص 339.

(17) – أبو سعيد الخراز (286هـ): من أهل بغداد، وهو من أئمة القوم وجلة مشايخهم، انظر الحلية ج 10 ص246 وطبقات الصوفية، ص 228 وصفة الصفوة ج4 ص 245 والطبقات الكبرى ج1، ص 117 وتاريخ بغداد ج4، ص 276.

(18) – رويم بن أحمدبن رويم بن يزيد، وهو من أهل بغداد ومن جلة مشايخهم، جده رويم بن يزيد حدث عن الليث بن سعد، توفي سنة (303هـ). انظر طبقات الصوفية ج2 ، ص 164 وحلية الأولياء ج 10 ص 149. وصفة الصفوة ج 2 ص 294. وتاريخ بغداد ج 5، ص 130. والطبقات الكبرى ج1، ص 26.

(19) – سهل التستري (283هـ) هو سهل بن عبد الله بن يونس. كنيته أبو مُحَمَّد، أحد أئمة القوم وعلمائهم، والمتكلمين في علوم الرياضات والإخلاص، من أقواله: شكر العلم العمل، وشكر العمل زيادة العلم. وقال: الذي يلزم الصوفي ثلاثة أشياء: حفظ سره، وأداء فرضه وصيانة فقره. وقال: الله قبلة النية، والنية قبلة القلب، والقلب قبلة البدن، والبدن قبلة الجوارح، والجوارح قبلة الدنيا. توفي سنة 283 هـ.

(20) – الرسالة القشيرية ص 23، وانظر طبقات الصوفية ص 159.

(21) – المصدر نفسه، ص 22

(22) – المصدر نفسه، ص 24.

(23) – المصدر نفسه، وانظر طبقات الصوفية ص158. وذكر المناوي في الكواكب الدرية 561/1.

(24) – الرسالة القشيرية ص24، وانظر صفة الصفوة ج 1 ص 480.

(25) – انظر اللمع في التصوف، ص 273.

(26) – الكواكب الدرية ج 1 ص 582.

(27) – المصدر نفسه ص 577.

(28) – التصوف الاسلامي في مدرسة بغداد ص211 .

(29) – هو أبو طالب بن علي بن عطية، المكي الحارثي، صوفي متكلم واعظ، ولد في العراق، ثم هاجر إلى مكة ونشأ بها ونسب إليها. من شيوخه: أبو بكر الأجري وابن الأعرابي، وأبو بكر علي الكرماني، عاد إلى بغداد حيث عقد مجلسا للوعظ. انظر تاريخ بغداد ج 3 ص 89 وسير أعلام النبلاء ج 16 ص 536"، وشذرات الذهب ج3 ص120 ووفيات الأعيان ج 1 ص 122، وميزان الاعتدال ج3 ص 107.

(30) – مقدمة كتاب قوت القلوب.

(31) – الفتاوى، جزء 10، ص 551.

(32) – مقدمة فهم القرآن، ص88.

(33) – المسائل في الزهد، ص199.

(34) – قوت القلوب، باب ذكر التكسب والتصرف في المعايش ج 2 ص 16 .

(35) – هو ابو حامد مُحَمَّد بن أحمد الغزالي الطوسي، حجة الاسلام، من مدينة طوس. قرأ الفقه على أحمد بن مُحَمَّد الراذكاني، سافر الى جرجان، ثم رجع الى طوس، لازم امام الحرمين، من أقرانه الكياالهراسي، وأبو المظفر الخوافي. ناظر الأئمة وتصدى للتدريس في المدرسة النظامية ببغداد، بتكليف من نظام الملك توفي سنة 505 هـ بطوس. انظر طبقات الشافعية ج4 ص103.

(36) – الإمام الغزالي، سلسلة الدراسات الإسلامية، مقال للأستاذ: ابو بكر خالد باه ص:41.

(37) – المنقذ من الضلال، ص: 239.

(38) – أستاذ السائرين، ص: 31

(39) – على حد تعبير الشيخ عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي (529هـ) وكان مصاحبا للغزالي، انظر طبقات الشافعية، ج4 ص 104.

(40) – المنقذ من الضلال، ص: 372.

(41) – المصدر نفسه، ص: 328.

(42) – المصدر نفسه، ص: 374.

(43) – المصدر نفسه، ص: 358.

(44) – الوصايا، ص: 40- 39- 37.

(45) – المصدر نفسه، ص: 40- 39- 37.

(46) – إحياء علوم الدين ج 4 ص 418.

(47) – حلية الأولياء، ج 10 ص 88.

(48) – المصدر نفسه، ج10، ص 88.

(49) – مقدمة كتاب العلم، ص 76.

(50) – إحياء علوم الدين، ج1، ص85.

(51) – المصدر نفسه، ج1، ص 85.

(52) – المصدر نفسه.

(53) – الرعاية ص 181.

(54) – الاقتصاد في الاعتقاد، ص2.

(55) – إحياء علوم الدين ج4، ص279.

فهرس المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم برواية ورش**
- **صحيح البخاري**
- **صحيح مسلم**[1]
- إحياء علوم الدين للغزالي، طبعة دار الكتب العلمية سنة 1996م.
- أستاذ السائرين لعبد الحليم محمود دار البصائر طبعة سنة 2005م.
- تذكرة الأولياء. للعطار، تحقيق: منال اليمنى عبد العزيز الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب تاريخ النشر: 2006/01/01
- التصوف الإسلامي في مدرسة بغداد. تأليف مُحَمَّد جلال نشر دار المطبوعات الجامعية ط 1975
- الرسالة القشيرية لأبي قاسم القشيري (465هـ)، طبعة دار السلام- القاهرة مصر الطبعة الثانية سنة 2003م. الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان سنة 2004 م.
- الإمام الغزالي، سلسلة الدراسات الإسلامية، مقال للأستاذ: ابو بكر خالد باه، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، لبنان سنة 2001م
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان سنة 1422 هـ
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر سنة 1992م.
- الطبقات الكبرى لإبن سعد، تحقيق علي مُحَمَّد عمر، مكتبة الخانجي سنة 2001 م.
- مجموع فتاوى إن تيمية، طبعة دار الوفاء سنة 2005.
- اللمع في التصوف للطوسي، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة مصر سنة 1960 م .
- الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي، تحقيق خيري سعيد – الطبعة الخامسة المكتبة التوفيقية.
- سير أعلام النبلاء للذهبي. مؤسسة الرسالة بيروت- لبنان سنة 1401هـ .
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، طبعة المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان.
- صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق عبد الحميد هنداوي المكتبة العصرية- صيدا بيروت، طبعة سنة 2008م.
- طبقات الشافعية لتاج الدين السبكي، طبعة دار المعرفة بيروت لبنان.

1

- طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي (412هـ)، تحقيق نور الدين سريبة- نشر مكتبة الهلال- بيروت لبنان- الطبعة الثانية سنة 1969م.
- طبقات الأولياء لابن الملقن، طبعة مكتبة الخالجي- القاهرة- الطبعة الثانية سنة 1994.
- الفهرست لابن النديم. - دار المعرفة الطبعة الثانية بيروت لبنان.
- فهم القرآن للدكتور حسين قوتلي دار الكندي ودار الفكر الطبعة الثالثة سنة 1982م.
- قوت القلوب، لأبي طالب المكي (386هـ) تحقيق محمود ابراهيم مُحَمَّد الرضواني دار التراث – مصر- الطبعة الأولى 2001هـ.
- كتاب العلم للحارث المحاسبي تحقيق مُحَمَّد العابد مزالي، الدار التونسية للنشر- طبعة سنة 1975.
- الكواكب الدرية للمناوي، مطبعة الأزهر 1938م.
- مختصر طبقات الفقهاء للنووي، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، دار الفكر- الطبعة الأولى 1995م.
- مرآة الجنان للإمام أبي مُحَمَّد اليافعي (768هـ)، منشورات مُحَمَّد علي بيضون، دار الكتب العلمية.
- المسائل في الزهد: للحارث المحاسبي تحقيق عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية- الطبعة الأولى سنة 2003.
- المنقذ من الضلال للإمام الغزالي – طبعة دار المعارف- تحقيق عبد الحليم محمود الطبعة الخامسة.
- ميزان الاعتدال للذهبي، تصحيح مُحَمَّد بدر الدين النعساني، القاهرة 1325هـ.
- وفيات الأعيان لابن خلكان.تحقيق إحسان عباس -دار صادر- بيروت لبنان.